عبد الله بن صالح الخراز

وُلِدَ على حافَّةِ المَوْتِ

١https://t.me/aboaryam

إهداء:

إلى أرواح الموتى الذين تساقطت أجسادهم بسبب جائحة كورونا حول العالم. إلى الدمعات التي سالت على فراقهم.

إلى قطاعات الصحة في كل أنحاء الكرة الأرضية، الخطوط الأمامية في مواجهة هذه الأزمة.

إلى كل الطرقات التي أصبحت خاليةً من كل شيءٍ سوى من الخوف!

****

١https://t.me/aboaryam

١https://t.me/aboaryam

إيطاليا مارس ٢٠٢٠م

(١)

لا زالت جانا تتكاثر عليها الآلام المتعددة، البكاء يسيل من عينيها كسيلٍ جارف، الهم لا يكاد يبتعدُ عنها، الخوف يتسلّطُ على حياتها بالكامل.

كل ما حصل لها في الأيام السريعة الماضية كان كفيلًا بأن يجعل حالها أسوء مما هي عليه، لكنها تحاول أن تواجه كل هذه الآلام رغبةً في الحفاظ على أعظم ما تملكه في حياتها.

هكذا حصل كل شيء بسرعةٍ خارقة، لم تكن تتوقع وهي التي كانت تجلس أمام زوجها فلافينو قبل شهرين من الآن بحبٍّ وأُلفة وهو يجهز سفرة الغداء على الطاولة ويرقص في مجيئه وذهابه ويغني أغاني "أندريا بوتشيلي" الفنان المقرب لها وهو يحاول تقليده برخامة الصوت وطريقة أدائه العجيبة فيحدّق بعينيه في الملعقة التي يحملها بيده وكأنها جهاز "المايكرفون"، و يحاول إخفاء عينيه بمنظرٍ مضحك ليتشبّه به؛ وهي بدورها تنظر إليه بحنق لاستهزائه بمطربها الأقرب والمحبب لها، لكنّها تحاول في المقابل إخفاء ضحكتها من طريقة تقليده البارعة.

كل ذلك انتهى الآن.

كل شيءٍ يتدهور في هذه المدينة الجميلة، "بادوفا" ذات التاريخ العميق والجمال البديع تعيش اليوم أسوأ مراحل حياتها، وكأن المدن كالبشر تتكالب عليها الظروف فتنهك جسدها وتشقي نفسها وتنهي مستقبلها!

كل شيءٍ أصبح شبيهًا بالإنسان، كل شيءٍ يمرض هنا، كل شيءٍ يُعدي فتصبح الأرض بعد ذلك مأوى للأوبئة وملاذًا للكوارث.

الحياة أضحت لا تطاق، المليارات حول العالم يعيشون أزمة في أشهرٍ يسيرة، آلاف مؤلّفة يتساقطون مرضى وموتى وكأن الحياة قد ملّتْ من أنفاس البشر!

لقد كانت جانا في مطبخها عندما تأكّد لها الخبر، وضعت هاتفها على الطاولة وهي تحاول أن تستند إليها بكفّيها في ذهول، ودموعها تتساقط من عينيها وذوائبها الداكنة تختلط بها على وجنتيها.

تحاول أن تصرخ بأعلى صوتها لتفجّر ما بها من خوفٍ وهلع؛ وأخيرًا سحبت الكرسي الذي بجانبها وجلست عليه وبسطت يديها على الطاولة وألقت بوجهها عليها وبعد أن مرت دقائق وهي في هذه الحال البائسة، رفعت رأسها لتحاول استيعاب ما قاله لها الرجل الذي خاطبها من روما برقمٍ غريب قبل قليل.

- آلو السيدة جانا؟
- نعم أنا جانا مرحبا.
- آآ السيد فلافينو..
- ما به؟
- هو زوجكِ أليس كذلك.
- بلى. هل هناك شيء؟
- آآ لا، في الحقيقة نعم، لقد كان يشكو من بعض الأعراض وآآ..
- ماذا، ماذا حصل له هل هو بخير؟
- لقد تأكّدت إصابته بفايروس كورونا مع الأسف؟
- ماذا، ماذا تقول؟ متى كان ذلك؟ لا يمكن. لقد تركنا قبل فترة ليست طويلة وقد كان في صحةٍ وعافية لا بد أنكَ تهذي ولا تدري ما تقول. إنه يحمي نفسه باستمرار ويقوم بالاحتياطات اللازمة ولم يخرج من بيته إلى عمله في روما إلا وهو في كامل قواه. لا يمكن أنت تكذب بلا شك.
- يا سيدتي يا سيدتي الكريمة، نعلم أن الأمر سيء ولكن هذا ما حصل بالفعل، آمل أن لا تخرجي من بيتك ولا تخالطي أحدًا كائنًا من كان حتى يصلَ إليكِ الفريق الطبي القريب منكم في أسرع وقت. أتمنى أن تقومي بإرسال موقع منزلكم بالتحديد.

١https://t.me/aboaryam

- قل لي أولًا أين فلافينو لا يمكن لك أن تهذي بكلامٍ باهتٍ وتريد مني تصديقك؟ أين فلافينو دعني أكلمه إن كنت صادقًا.
- للأسف أن حالة زوجكِ خطرة جدًا فالمرض قد وصل به لحالة متقدمة لأنه لم يُكتشف إلا بعد فترة متأخرة وقد رصدنا عدة حالات من المخالطين له في عمله!

كان ذلك الحوار المأساوي الذي حدث لجانا أفقدها صوابها وهي الآن تتذكّر تلك الكلمات المؤلمة رافعةً رأسها من الطاولة لترفع هاتفها وتقوم بإرسال موقع بيتها حتى يأتي إليها الفريق، ومن يدري قد تكون مصابةً هي الأخرى بهذه الجائحة المرعبة فزوجها قد نشر الوباء بين أصدقائه وهو في حالةٍ خطرة ولا يستطيع التحدث!

رفعت هاتفها ولكنّها تيبّست في مكانها رأت ما جعلها تترددُ في القيام بالاتصال وبقيت على حالها دون حراك وهي في ذهولٍ وخوف تتسارع نبضاتها عندما وقعت عيناها على..؟

إنها تنظر إلى بطنها وعيناها جاحظتان في خوفٍ، تملأهما الحمرة وتسيل منهما الدموع!

إنها في شهرها الأخير، بطنها العملاقة!

نعم إنها تنظر إليها برهبة شديدة؛ ما الذي سيحصل لذلك الطفل المسكين!

رفعت رأسها بقوة وهي تصرخ بكل صوتها، وتضرب الطاولة بيديها بكل قوة.

- لا، لا، لا، لا يمكن ذلك!

منذ تلك اللحظة الخانقة في حياة جانا وهي لا تكاد تمارس حياتها بشكلها الطبيعي، أمها وأخواتها عالقون في كاتانيا بسبب تفشي المرض وزوجها أصيب في روما وهو في حالةٍ خطرة، وهي وحيدةٌ الآن في شقتها وتحمل طفلها بداخلها وهي التي لا تخشى شيئًا أكثر من خشيتها على هذا الطفل البريء وكيف سيطلّ على العالم بهذه الحال!

تتذكر في هذا الموقف حينما كان الطبيب يمرّرُ جهاز السونار على بطنها وهي تنظر لزوجها مبتسمة وتحاول أن تهمسَ له بصوتٍ منخفض: "هذا هو طفلنا" وتشير بذقنها نحو تلك الشاشة الصغيرة.

يضحك الطبيب لها ويقول:

- ولماذا تخفضين صوتكِ وكأنكِ تخافين من أن توقظين طفلك!
- أوه لا أعلم ولكنني سعيدة بذلك.

يصدر فلافينو صوت طفلٍ صغير وكأنه منزعجٌ من صوتهما بطريقته المعتادة التي يحب من خلالها إنهاء كل كلامٍ جادٍّ بضحكٍ واستهزاء!

تتذكر ضحكهما بشكلٍ هيستيري بعد أن خرجا من عند الطبيب وركبا سيارتهما وهما يفكران بالطريقة التي سيخرج فيها الصبي وهو يرى أمامه عيون ذلك الطبيب المخيفة تطلّ عليه في أول دقائق حياته، أو أنف تلك الممرضة المساعدة التي يكبر في كل زيارةٍ اعتيادية إليها!

تتذكر خصامهما المعتاد حول اسم الطفل الأول والتي تريد تسميته "أندريا" تيمّنًا بفنانها المحبوب، فينظر إليها بكل استحقار ليقوم بحركاته مستهزئًا ببوتشيلي لكن كل استهزاءه يزول عندما تشغل له أغنيته التي يحبها له، وتقف أمامه مميلةً رأسها ممسكةً بخصرها الذي لم يعد ظاهرًا بعد حملها فتمد يدها نحوه ليقوم معها راقصًا فيستسلم بين ذراعيها بكل حب.

"نحن فقط عشّاق

للأبد نبقى عشّاق".

تعود جانا للحظتها الحقيقية بعد أن سبحت في الخيال لكنها تتنبه الآن أنها تستمع لأغنيةٍ مختلفةٍ تمامًا لأندريا:

"عندما تكونين بعيدة أحلم بالأفق وتعجز الكلمات

نعم أعلم أنك معي، معي

أنت يا قمري معي هنا

يا شمسي أنت هنا معي، معي، معي، معي

حان وقت الوداع".

لقد ماتت الممرضة ذات الأنف الكبير بالفايروس والطبيب الذي تراجع عنده هو الآن في حجره الصحي يشتبه بأنه مصابٌ بالمرض، وزوجها الحبيب بين الحياة والموت وهي تردد مع أندريا بصوتٍ مكلوم وتمسح على بطنها بحنوٍّ على أندريا الصغير القادم.

حان وقت الوداع!

****

١https://t.me/aboaryam

(٢)

تقوم الممرضة إيلينا صباحًا بعملها في قسم الطوارئ في المستشفى مع الممرضات الأخريات وتسمع حديثهن المتكرر حول انتشار الخطر في المدينة وتسجيل الإصابات المتكررة بفايروس كورونا؛ كانت تنصت لهم وهي خائفة ومرتعبة من دنوّ الخطر:

- سمعتُ أنّ المستشفى سيتم تفريغها تمامًا لاستقبال الحالات المتكدّسة للمصابين بالفايروس، لقد اجتمعت إدارة المستشفى البارحة وأظن أن الأمر يزداد سوءًا وأنه فوق ما نتصور.
- المستشفى لا يكفي غرفه صغيرةٌ جدًا ومحدودة فضلًا عن الأسرّة غير المهيأة والممتلئة بالمرضى ولا أعتقد أنها ستستطيع أن تحمل عبء الحالات المتزايدة للمصابين بالفايروس.
- أنا متأكدةٌ من الأمر لقد تم ملء المستودعات ليلًا بالأدوات الطبية الجديدة لاستقبال أكبر عدد من الحالات، الأمر في بادوفا أصبح مخيفًا.

التفتت إيلينا عليهن بقوة وخوف:

- ونحنُ ماذا سنفعل؟

نظرت إحداهن نحوها وعليها ملامح الحزم وأجابت بقوة:

- بالتأكيد سنقوم بعملنا الذي يُرجى منّا، نحن اليوم من يقع على عاتقنا الخدمة أولًا.

إيلينا تحاول أن تتنفّس بصعوبة، لقد امتلأت خوفًا من كلامهما. أخرجت من حقيبتها السلسال الذي تحمله دائمًا معها، وسقطت دموعها وهي ترتديه وتضمّه على صدرها.

إنها هدية حبيبها "موريزيو" هو الآخر يعمل في أحد مستشفيات كاتانيا وقد هاتفها بالأمس وأخبرها بسوء الأحوال وتراكم أعداد المصابين والموتى كذلك، ويخشى أن تكون هذه الأيام هي آخر الأيام التي قد ينعم بصوتها فيها.

١https://t.me/aboaryam

لم تنم طيلة الليلة الماضية كانت متعبة ومنهكة وتستمر بالبكاء ولكن ما إن تنفّس الصبح إلا وقد لملمت أحزانها لتنهض إلى عملها تحاول أن تربط على قلبها وتستعيد قوتها لمواجهة أي خطرٍ قد يحدث.

لكنها الآن تشعر بالخوف، هل هو الخوف من لقاء المصابين بهذا المرض؟ يبدو أنه أمرٌ ساذج فقد التقت بأكثر الأمراض خطورة في مسيرتها العملية، قد يكون هو الخوف من الفقد أو أن هذا المرض خفيًّا بالقدر الذي يفتك به وبالقدر الذي ينتشر به وبالقدر الذي يوصل إلى العجز عن مواجهته.

ولكن نحن اليوم من يقع على عاتقنا الخدمة أولًا؛ قالتها مرددةً كلام صديقتها الممرضة كاترينا.

دخلت أحد الممرضات بسرعة إليهن وهي تلهث:

- بسرعة تعالَيْن هناك امرأة على وشك الولادة!

أسرعت إيلينا وكاترينا إلى استقبال الحالة ونقلها إلى غرفة العمليات مباشرة وذهبت الثالثة تستدعي الطبيب المختص.

لقد كانت جانا مستلقية على السرير وتُدفع من قبل رجال الإسعاف، استقبلتها الممرضات بسرعة واتجهوا نحو الغرفة المتخصصة.

وهم في طريقهم خرج مدير المستشفى وهو يصرخ وفي حالة من الذعر يدعو الممرضات إلى ترك الحالة.

- لا يمكن استقبال حالات تطول مدتها، لقد أفرغنا المستشفى بكامله سيكون هذا المكان موبوءًا بعد لحظات!

توقفت إيلينا وهي تنظر إلى كاترينا بخوف وقلق:

- ما العمل؟

قطّبت كاترينا جبينها وقالت بحزم:

- لا يمكن أن نتركَ مريضًا من بين أيدينا مهما كانت الظروف. اذهبي الآن بالمريضة إلى الغرفة وأنا سأتحدث معه.

اتجهت إيلينا نحو طريقها، وزاد صراخ المدير وهو يهتف:

- لا تدخلوا أحدًا.

لكن هناك ما قطع صراخه، جعله يتجه بنفسه نحو الباب الرئيسي، تحدث أحدهم إليه عبر الجهاز الصوتي أن هناك حالات لمصابين بالفايروس قادمون باتجاه المستشفى.

أدار بظهره سريعًا نحو الباب الرئيسي:

- أغلقوا الباب، استقبلوا الحالات من باب الطوارئ فقط.

رفع المدير جهازه يخاطب المسئولين الآخرين:

- اتخذوا التدابير اللازمة؛ هناك عدد من الحالات في طريقه إلينا ويجب علينا أن نجعل لها المكان الذي قمنا بتحديده، وعلى الفريق الطبي المجهّز الاستعداد عند بوابة الطوارئ.

أدارت كاترينا ظهرها وعادت لتستعدّ وتأخذ احتياطاتها وتتوجّه بعد ذلك إلى بوابة الطوارئ، إنها تتلهف الآن لاستقبال الحالات المصابة بالوباء تريد أن تكون في الخطوط الأمامية التي ستواجه هذا الخطر القادم.

بعد دقائق كانت سيارات الإسعاف تخرج المصابين ولكنّ الأمر كان مختلفًا تمامًا، فالأعداد التي كانوا يتوقعونها لم تكن كذلك لقد استقبلوا المئات من المرضى.

التفت رئيس الفريق الطبي المجهّز نحو مديره:

- لا يمكننا أن نستوعب هذه الأعداد دفعةً واحدة، يجب أن..

- لا وقت لدينا ولا مكان لديهم، سنحاول أن نبذل قصارى جهدنا لإيوائهم ونسعى أن لا نضطرّ لأسوأ الخيارات.
- ولكن يبدو أننا سنضطر لها.

صمت المدير وهو يبتلعُ ريقه بقوة وهو ينظر للمرضى ويتصبب عرقًا.

مرت ساعاتٌ حرجة على المكان، تزايدت الأعداد بشكلٍ مخيف، كل الغرف فُتحت لاستقبال المرضى، لا يعلمون ما الذي يستطيعون القيام به بالفعل، هل هم أمام مرضى سيقومون برعايتهم وتقديم العلاج لهم أم هم في مركز إيواء فقط!

ينتظر أحدهم الموت حتى يكون هناك متّسعٌ لآخر، أصبح الوضع أكثر حرجًا.

كاترينا تركض هنا وهناك، تحاول أن تبذل ما تستطيع.

مرت عليها ثلاث ساعات كانت أقسى ساعات حياتها. تعمل بتعبٍ شديد وألمٍ بالغ ولكنها في الواقع لا تجد ما يدعو إلى أن ما تقوم به سيكون ناجحًا بالفعل.

أكثر ما يجعل هذا الأمر مخيفًا هو أن مقياس الصحة والمرض لا يظهر سريعًا والمرضى لا يبدون بصحةٍ جيدة وقد يبدون كذلك ولكن سرعان ما تفقدهم دون أن تعلم بقرب أجلهم.

إنها تركض الآن وكأنها تبحث عن ذلك الأجل لتوقفه!

مرت كاترينا على الغرفة الخاصة بالولادة، كانت قد نسيت أن هناك حالة ولادة استقبلت قبل ساعات! وعند مرورها أمام تلك الغرفة سمعت صوت طفلٍ صغير يبكي.

جحظت عينا كاترينا عندما سمعت صوته، تذكرت الآن ما قد حصل وكيف أنها استقبلت المرأة واتجهوا بها إلى غرفة الولادة! انفجرت بالبكاء رغم صلابتها التي كانت تتصف بها.

لم ترَ في حياتها أنها بحالةٍ من العجز كما هي الآن، فتحت باب الغرفة لترى إيلينا تقفُ عند رأس الطفل لتهدئته والعناية به وهي تبكي غير قادرة على أن تتصرف بشكلٍ مناسب، تخشى

أنها إن أخرجت الطفل أو الأم خارج الغرفة أن تعرضهما للخطر وهما في حالة الضعف الحالية.

وقفت كاترينا وهي تشاهد المنظر أمامها، الأم على فراشها نائمة والطفل يبكي أمام إيلينا وهي واقفة أمامه تبكي هي الأخرى.

تلتفت إلى المكان خارج الغرفة فترى التسارع والسباق مع الزمن لاستقبال حالات المصابين بالفايروس من كل مكان، وترى هناك الموتى الذين لم يسعفهم الوقت للعناية في أول ساعات وصولهم.

أعادت النظر نحو الطفل وقالت بصوتٍ خائفٍ متهدّج:

- إيلينا! ماذا سنفعل؟

قالت إيلينا وهي تبكي بشدة وصوتها يتقطّع بألم:

- نحن اليوم من يقع على عاتقنا الخدمة أولًا.
- نحن اليوم من يقع على عاتقنا الخدمة أولًا.

وفجأة دخلت إحدى الإداريات عليهن بقوة:

- يجب إفراغ هذه الغرفة فورًا هناك حالات كثيرة هنا.

صمتت قليلًا وهي تنظر إلى المشهد أمامها:

- كيف؟ كيف وصلت هذه المرأة إلى هنا؟ ومنذ متى حصلت حالة الولادة هذه؟

كاترينا التفت نحو الطبيبة المسئولة:

- لا يمكن تعريض هذه المرأة للخطر يجب أن تخرج من المستشفى فورًا.

قالت الطبيبة وهي خائفة ومندهشة مما يحدث:

[١] https://t.me/aboaryam

- لا يمكن ذلك، نحن نسعى لإيقاف المرض قدر المستطاع، لا يمكن أن تخرج من هنا مطلقًا!

صرخت إيلينا:

- والطفل؟

أجابت الطبيبة بانفعال:

- من سمح لهذه المرأة وجنينها أن يدخلا هنا أولًا؟ إنه خطأكنّ ولن يخرج أحدٌ من المرضى من هنا أبدًا، للأسف لقد أصبح المستشفى منطقةٌ موبوءةٌ الآن. هيا تحركن.

قالت كاترينا بقلق:

- ماذا سيحدث؟
- سنستقبل مرضى في هذه الغرفة، وسنحاول أن نحيط الأم وابنها العناية اللازمة لكي لا تصيبهما العدوى!

خرجت الطبيبة مسرعةً تدعو لاستقبال المرضى بأسرّتهم إلى الغرفة.

حملت إيلينا الطفل وضمته نحوها بقوة وهي تبكي وتقول:

- لا، لا مستحيل، لا يمكن.

وخرجت بسرعة وهي تركض نحو باب الطوارئ.

تصرخ كاترينا إليها:

- إيلينا إلى أين أنتِ ذاهبة هذا جنون! إيلينا، إيلينا.

أسرعت إيلينا مع الطفل خارجةً من المستشفى وهي تمر بين زحمة الداخلين عند البوابة، تنظر من حولها وهي تحاول أن تشيح بوجهها عن الأعداد المتكدّسة في كل مكان!

١https://t.me/aboaryam

استطاعت أن تخرج من الباب ووصلت إلى الشارع وهي لا تعلم ما الذي تقوم به، ركضت باتجاهٍ لا تعلم أين سيوصلها.

لا تجد سيارات تمشي من حولها، الناس في بيوتها عالقة، أو في المستشفيات تنتظر حتفها.

أصبحت بادوفا مخيفة جدًا لم تكن كذلك في يومٍ من الأيام.

بعد أن مضت في سعيها طويلًا وابتعدت عن المستشفى، توقفت عن الركض، وبدأت تنظر إلى هذا الطفل الذي بين يديها ما الذي ستفعله الآن؟ هل ما تقوم به سينقذ الطفل فعلًا، أم هي تعرضه للخطر؟

إلى أين ستتجه؟ هل ستعود إلى مسكنها ولكن كيف ستعود إليه وهو بعيدٌ عنها الآن؟

إلى أين؟

****

١https://t.me/aboaryam

(٣)

إن هذا البيت هو البيت السادس الذي تطرقه إيلينا لتقديم المساعدة لها مع الطفل الذي تحمله بين جنبيها، ولكن الأمر ليس سهلًا ليتم استقبال ممرضة مع طفلها في هذه الأوقات الحرجة!

مرّ الوقت صعبًا وهي لا تدري ما تفعل حتى استوقفتها سيارة الشرطة، بدأت إيلينا بالحديث إليهم ولكنها انفجرت بالبكاء:

- أرجوكم، أرجوكم..

ولم تستطع أن تكمل كلامها.

قال لها الشرطي:

- اصعدي الآن إلى السيارة وسنحملكِ للمكان الذي تريدينه.

صرخ صاحبه عليه:

- لا يمكن ذلك، ألا ترى؟ إنها ممرضة يجب أن تأتي سيارة الإسعاف لأخذها والتأكد من سلامتها لا نستطيع أن نأخذها معنا ونعرض أنفسنا للخطر، كما أننا لا نستطيع أن نتركها هنا وتعرض الناس للخطر أيضًا!

تردد الشرطي وقام وهو على بعد مترين عن إيلينا يحاول أن يهدّئ من روعها قليلًا ويفهم منها ما الذي تفعله هنا.

وبعد أن هدأت قليلًا بدأت تشرح للشرطِيَّيْن ما حدث.

زاد خوفهما بطبيعة الحال، لا يمكن أن يتعاملا الآن مع امرأة وطفل خرجا قبل قليلٍ من مكانٍ مليءٍ بالمصابين. تزوّدَ الشرطيّان بالاحتياطات اللازمة وابتعدا عنها أكثر ثم قاموا بالاتصال على سيارة الإسعاف.

https://t.me/aboaryam١

جلست إيلينا خائفةً على الرصيف، لم تكن تريد أن تعود للإسعاف والمستشفى مرةً أخرى ولكن هذا آخر حلٍّ تستطيع أن تقوم به وهو أسلم حلٍّ كذلك.

لا تعلم أصلًا لماذا خرجت مع الطفل بهذه الطريقة.

جاءت سيارة الإسعاف، حملوها والطفل عن طريق النقّالة إلى السيارة، قال سائق السيارة سنذهب بكِ إلى بيتك لا يمكن أن نستقبلكِ الآن في المستشفى ولكن ابقِ في البيت ولا تتحركي لأي مكان وتواصلي مباشرةً معنا إذا احتجتِ لشيءٍ أو أحسستِ بأي تعب، وسوف يتم التواصل معكِ بأقرب فرصةٍ لإعادة الطفل لأمه دون إذاعةٍ للأمر قدر المستطاع.

بدا على إيلينا شيء من الراحة والهدوء بعد أن علمت أنها لن تعود إلى المستشفى بعد الآن.

وصلت إيلينا إلى بيتها وهي لا زالت تحمل الطفل بين يديها.

إيلينا العزباء ذات السابعة والعشرين من العمر تحمل طفلًا رضيعًا وُلد قبل ساعات لامرأةٍ أخرى أخذته من حضنها وهربت، لتكون له مربية وأم لأول أيامه في شقتها الصغيرة الشحيحة باحتياجاتها وإمكاناتها!

****

https://t.me/aboaryam

خيّم الليلُ على المدينة، تجلسُ إيلينا على كرسيّها أمام النافذة تحمل بيمينها كوب قهوةٍ وفي يدها اليسرى تحمل الطفل الغريب بهذه الأحداث الغريبة.

للتوِ جفّت عيناها من البكاء، ما شاهدته اليوم أقسى من أن يحتمله قلب بشر، الأحداث أصبحت أسرع من الضوء وأبشع من الموت نفسه!

تتذكّر تلك الأعداد التي رأتها وهي تخرج من بوابة الطوارئ، أصوات التنهيد الشديدة التي تطلقها صدورهم، العجائز والشباب في صفوفٍ يبحثون عن سريرٍ يستندون إليه.

تعود إيلينا لبكائها وتحسُّ أنها ارتكبت جرمًا، كيف لها أن تهربَ من تلك المعركة الضارية وكأنها تفرُّ من الزحف!

كيف لها أن تتركَ بقية الممرضات وسط الموت وتخرج مدّعيةً إنقاذ روح طفل أخذته من أمه! هل كان حقيقيًّا من أنها تريد إنقاذ طفل أم أنها كانت ترتعد خوفًا وتريد أن تفر بجلدها عن هذه الأحداث العصيبة؛ كيف ذلك وهي التي ختمت حديثها قبل أن تغادر بقولها: (نحن اليوم من يقع على عاتقنا الخدمة أولًا).

تشيح بوجهها عن النافذة وتبكي بكاءً مريرًا على ما فعلت، تضع كوبها على الطاولة الصغيرة التي أمامها. تنظر إلى صدرها فترى قلادة موريزيو معلّقةً بحب.

وتهمهم بخوف:

- يا ترى كيف هو الآن؟ ماذا يصنع وهو الذي لا يخرج من المستشفى أبدًا!
كيف يصنع وهو الذي استطاع أن يصبر على مواجهة المرضى دون ترددٍ أو خوف!
كيف يصنع وقد أخبرني أن الوصل قد ينقطع في الأيام القادمة!
أيعقل ذلك؟ أيعقل أن ينتهي كل شيء؟ تنتهي حياتي قطعةً قطعة وأنا أنظر إليها؟
أفتقد مهنتي وعملي مؤثرةً نفسي عليها! أفتقد إنسانيّتي وأهربُ من موقفٍ كنتُ عاهدتُ نفسي من أجله، أفتقد حبيبي في مكانٍ بعيد، ومن يدري فقد أفتقدُ هذا الطفل وهو بين يديّ لشحّ إمكانياتي!

https://t.me/aboaryam١

كل ذلك أفتقده وأنا أنظر إليه؟

أتمنى الموت دفعةً واحدة دون أن أتقطّع هكذا.

أغمضت عينيها وراحت تمسك برأسها من شدة الآلام التي تعتريه.

تتذكّر كيف كانت حياتها جميلةً وهادئة، كيف كانت تحلم بورديّةٍ ومستقبلٍ مفعم بالحب.

تتذكر عيد ميلادها في يناير الماضي، اللقاء الأخير الذي جمعها بحبيبها، الهدايا والقبلات والموسيقى الصاخبة. لقد جاء إلى بادوفا من أجل أن يحتفل معها وقد أضحت وحيدةً عن أهلها في روما.

تنظر إلى تلك الأريكة التي أمامها، التي جمعتهما معًا وهو يضمّها بيمينه نحو صدره ويقبّل ثغرها وهي تحاول أن تضحك كلما اقترب لتعثّر تمام القبلة وتغيضه.

فيغضب منها ويعمد إلى جيدها ويقول: (هيا أَضحكي رقبتكِ إن استطعتِ!) ويضحكان.

كل تلك اللحظات كانت قبل شهرين فقط!!

ما الذي حصل الآن؟ وماذا سيحصل!

كلما فتحت هاتفها لتقرأ الرسائل أو تفتح على شيءٍ من مواقع التواصل، تجد أرقامًا وإحصائياتٍ وأخبارًا حول العالم تحكي مرارات وويلات هذا المرض.

الشرق والغرب، البلدان العربية أصبح المرض يزحف فيها زحفًا، آسيا، أوروبا، آهٍ يا أوروبا كم أصبحت موحشة؛ أصبح العالم بيتًا واحدًا ليس قريةً واحدة أو مدينةً صغيرة!

أصبح الإنسان يُعدُّ كما تُعدُّ الأشياء الأخرى، وذابت الفروقات بينه وبين غيره.

كيف أصبح الإنسان اليوم عبارة عن رقم، لقد وصل عدد المصابين (...)، لقد مات منهم(...)، لقد تعافى منهم (...). يا إلهي كم لهذه الجمل من وقعٍ مريبٍ عليّ، كيف يكون ذلك معقولًا!

https://t.me/aboaryam١

الإنسان مجرد رقم، يعبث به كائنٌ لا يُرى!

مخيفٌ جدًّا أن يُستنزف العالم بأسره، من البشر الذين يحيونه، من أموالهم، من دولهم وسياساتهم، من أفكارهم، ومن عباداتهم! لكائنٍ أصبح يشكّل الخطر الأول وهو لا يمكن مواجهته صراحةً.

العجز هو المرض الأول الذي يصيب العالم اليوم، هو الوقع الأشد في صراعهم مع فايروس كورونا. نعم العجز أضيقُ من ضيق التنفس!

يرنّ هاتفُ إيلينا ويوقظها من أفكارها وخيالاتها.

إنها كاترينا:

- آلو إيلينا أين أنتِ؟
- في شقتي.
- لماذا فعلتِ ذلك؟ كان باستطاعتنا أن نوفّر للطفل الرعاية، إن ما قمتِ به يُعدُّ جريمة!
- لم أستطع أن أتركه هناك وسط فوضى المرضى وأنفاس المرض تحوم حوله.
- هل الطفل معك الآن.
- نعم.
- قولي لي كيف ستعتنين بطفلٍ رضيع وأنتِ بهذه الحال؟
- ماذا سأفعل ليس لدي خيار.
- الطفل مكانه الأصلي هنا وسنتحدث مع الإدارة لحمله لمكانٍ أكثر أمانًا في المبنى الخاص بالحضانة.
- هل يعني أن مبنى الحضانة خالٍ من المصابين.
- آآآ ليس تمامًا، ولكن هناك أماكن يستطيع أن يكون فيها بعناية أكبر.
- ولكني أخشى عليه.

- ممَّ تخشين؟ هذا جنون لا يمكن أن تتوقفي عن عملك ونحن في هذه الحالة الحرجة بحجة الاحتفاظ بطفلٍ لا تعرفين عنه ولا عن أهله شيئًا.
- أوه صحيح كيف هي حال أمه؟ هل سألت عن طفلها عندما استيقظت؟ وكيف تصرفتم؟
- آآآ في الحقيقة هذا هو الأمر الأصلي الذي أردت أن أحدثكِ عنه.
- ماذا؟
- نعم سألت عن ابنها أول ما استيقظت ولكن لم يدم استيقاظها طويلًا!

سكتت قليلًا، وإيلينا تجهّم وجهها تنتظر إجابةً من صاحبتها.

فأضافت كاترينا:

- لقد اكتشفنا أن الأم كانت حاملةً للمرض قبل ولادتها بأيام وهي في حالة حرجة الآن بسبب ضعفها الذي حلّ بها بعد الولادة.

نظرت إيلينا إلى الطفل في يدها وهي بحالة ذهول وخوف وسقط الهاتف من يدها!

****

لبست إيلينا متهيّأةً لاستقبال الفريق الطبي الذي سيقدم إليها ليقوم بفحصها وفحص الطفل. وقد وقفت الآن بشكلٍ مختلف وأفكارٍ أكثر ثباتًا.

ستعود إلى المستشفى راضيةً إما مريضةً أو ممرضة ولو كان في كلا الأمرين نهايتها.

لن تكمل مسلسل الخوف والهلع الذي عاشته في يومها المنصرم.

التفتت على الصبي بعد أن استقبلت الفريق الطبي لدخول الشقة، كان نائمًا ترى بين عينيه شيئًا يجعلها متعلّقةً بملامحه.

ربما هو ذلك النور الذي يولد من رحم الظُّلمة، ربما هو السكّر الذي يخرج من بين حبات الحنظل، ربما هو الأمل الذي نحتاجه لنسلي به نفوسنا!

بدأ المرضون بعملهم، كان الكشف المبدئيُّ عليهما سليمًا، نقلوهما إلى مبنى الحضانة للحجر عليهما والتأكد من سلامتهما في غرفةٍ مستقلة.

بعد يومين جاء خبر نعي والدة الطفل "جانا" توفيت وهي لا تعلم عن حال ابنها الذي كانت خائفةً قبل ولادته من أن يصيبه مكروه، والتي كانت تريد أن تقدم نفسها فداءً له ليبقى سليمًا.

ها هي الآن تقدم الفداء، ولم تكتحل عيناها برؤيته ولا برؤية والده الذي غابت أخباره.

الطفل المجهول أصبح بعد أسبوعين من الحجر سليمًا ولم يحمل المرض وكذلك إيلينا، عادت لتكمل عملها وتكرّس جهدها لمواجهة هذه الجائحة.

(نحن اليوم من يقع على عاتقنا الخدمة أولًا).

العتمة ليست إلا مرحلة وتنتهي، ولكنّ هذه المرحلة تحتاج إلى الحذر في كل لحظاتها، تحتاج إلى الأمل في ثنايا تفاصيلها.

الأمل الذي قد يولدُ يومًا وسط كل الأسقام ليكونَ ترياقًا لها!

١https://t.me/aboaryam

الأمل الذي قد يحمل بين أحضانه الحب وسط كل الجشع والكراهية التي تخنقنا بها رائحة الأزمات.

الأمل الذي قد يولد من الكارثة سيكون يومًا بناء له أركان يشيّدُ مُدن الخراب.

الأمل أن تولد في الخوف فتكون الأمن الذي يرجوه البشر كلهم.

الأمل أن يرتقب العالم اليوم وهم يحسنون الظن بربهم، أن غدًا سيكون أجمل رغم عن كل هذه الأصوات الخانقة والخوف المقيِّد لأعناقنا.

كتبه:

عبد الله بن صالح الخراز

الرياض ٣٠ مارس ٢٠٢٠م.